

جوزف دوناتو، الذكاء الذي عاكسته الطائفية

لقد رحل العم جوزف. سوف يفتقد أصدقاء كثير عرفوه عن كثب صوته الجمهوري عندما يتلو سبحة الاقتباسات بالفرنسية، ولكنته الغريبة بعض الشيء، ونظرته الأسرة دائماً. في ما يتعلق بي، أنا الذي ربطتني به صداقة عائلية طويلة ممتدة على ثلاثة أجيال - أعتقد أن والديّ تعارفاً لدى آل دوناتو، في شارع لبنان، حيث كان يعيش جدّي لجهتي والدي ووالدتي - غالباً ما نهرت بثقافته الكونية المحمولة على أجنحة اللغة الفرنسية، وأتذكر أنه كان أوّل من حدّثني عن فوم تشومسكي حوالى عام 1973... كان لينسّر لمعرفة كم أن الحوار الذي أحتج مع اللغوي الفيلسوف الكبير حادّ، وأننا لا نزال نتشاجر بوذ حول أنماط تسوية الصراع العربي-الإسرائيلي، تشومسكي الواقعي الذي يريد إنقاذ القليل المتبقي من الأثاث الفلسطيني في الضفة الغربية، وأنا، مثل العم جوزف، المثالي والمتمسك بدولة موحدة فيدرالية في منطقة حيث يجب أن تكون المساواة بين البشر وحرية التنقل الركيزة المثلى.

لم أزه كثيراً في الأعوام الأخيرة. الشيخوخة غرق، كما كان يرّد والدي نقلاً عن شارل ديغول، وقد رفضت العمّة نيكول، الجميلة وصاحبة الحضور القوي، أن تدع الأطباء يطيلون حياتها التي أضناها السرطان.

عقد الحلقة، حلقة الصداقات التي كانت ضيقة جداً من قبل، انفرط بقسوة، وتعوّل شارع لبنان برحيل الأولاد إلى أربعة أصقاع الأرض، ثم الغياب تلو الآخر: جدّتي سلمى التي كانت تسكن فوق آل دوناتو، والتي كان حضورها العذب يرسخ اللحمة في دائرة الصداقة في شارع لبنان، توفيت في الأسابيع الأولى من الحرب، وكان موتها كان نذير عالم بروسطي ينهار: وفي الفترة الأخيرة رحلت العمّة نيكول دوناتو، ورفيق بعيني، وهنري نون، ووالدي، والآن العمّ جوزف.

في حلقة شارع لبنان، حتّى المباني لم تبقى. على بعد مئة متر، حلّ مكان المنزل البيروتي العتيق لشاعر الأرز مبنى من دون روح، وأجد نفسي أكرّر أمام مسامع أولادي في كل زاوية من الشارع أبيات بودلير الجميلة "باريس العتيقة لم تعد هنا. شكل المدينة يتغيّر، ويا للأسف، أسرع من قلب الفاني". ما يقطه رحيل جوزف دوناتو في هو الشعور بقسوة النظام الطائفي في لبنان. كان لا تينياً، أو شيئاً من هذا القبيل، أي إنه كان "أقلياً" قانونياً، بحسب ما يفرضه القانون اللبناني على المواطن. لم يكن لذكائه اللافت وثقافته العميقة مكان تحت الشمس في لبنان طائفي، وإذا نجح وأخيراً في أن يصبح سفيراً، فهو لم يحقق ذلك إلا بعد إذلالات وتأخيرات كثيرة. السفير هو أقصى منصب يستطيع أن يطمح إليه "الأقلي" في لبنان، وإنما ليس سفيراً في موقع أساسي، فهذه المواقع متروكة للطوائف "الأكثرية". إنه أبلد بأئس عاكس ولا يزال ذكاء جوزف دوناتو وإدمون رباط وميشال شيا، وسواهم الكثير من الكبار الذين رحلوا.

سوف يبقى جوزف دوناتو والأذكاء الذين تعاكسهم الطائفية اللبنانية، على الدوام مثلاً عن بلد غير ذكي بفله الطائفي، ومع أن جيلي لم ينجح في التخلّص من هذا العمل، ولو قليلاً، ما زلت أعتقد أن الزمن هو إلى جانب ذكاء آل دوناتو في الحلقة الرائعة في شارع لبنان.

محام وأستاذ قانون - ترجمت النص عن الفرنسية ن-ن.

شبلې ملاط